برتقال إسماعيل

رواية

كلير حجاج

ترجمة

نوف الميموني

عزيزتي صوفي

لا أنتظر منكِ أن تغفري لي، ولا أعتقد أنكِ سوف تفهمينني. أنت الطيّبة منذ ولدتِ. أنتِ صانعة السلام.

الآن فقط فهمت. الآن فقط.. بعد أن جئتُ إلى هنا ورأيته. رأيته بعيني يا صوفي، بعد أن تخيلته طوال تلك السنين. إنه يشبه الصورة تمامًا. أبيض.. أبيض كالعظم. هناك أشجار خلف بوابته، والتراب يغطي الأرض كالذهب.

كنت أظن أنني سأكرهه. أليس من حقي أن أكرهه؟ لكن المكان جميل جدًا هنا. وهادئ كالحلم. مثل الأفلام التي كنا نسجّلها في الصحراء عندما كنّا صغارًا. أتذكرين؟ كانت بالصورة، لكن بلا صوت. وكنا نضحك جميعًا ونلوّح، وكان هو خلف الكاميرا يهتف لنا ويشجّع. في تلك الأيام، لم نكن نتظاهر بأننا أسرة واحدة، بل كنا حقًا كذلك.

أتعرفين أكثر ما يؤلمني؟ أتذكرين تلك القصص التي كانت تحكيها لنا أمي قبل النوم؟ تبدأ "بكان يا ما كان" وآخرها "انتهت الحكاية"؟ أتذكرين كم كنّا نحب هذه الحكايات؟

عرفت الآن أن كلها أكاذيب. ليس للقصص بدايات ولا نهايات. إنها تستمر بلا نهاية. أنتِ وأنا وهم، وكل البشر من قبلنا نرقص على الإيقاع نفسه. لكنني تعبت... تعبت. ولا أرى طريقة نوقف بها رقصنا.

إن أكثر ما يقهرني هو... ربما لو أننا عشنا في هذا البيت لكنا سعداء. ألا تثير هذه المفارقة الضحك؟ ماذا لو أن العجوز الأحمق كان محقًا، وأننا فعلاً ننتمي إلى هذا المكان؟ نعلّق ذكرياتنا السعيدة على الجدران. أول ظهور لي

على خشبة المسرح. أنا وأنتِ نسير على الشاطئ، ويدي تمسك بيدكِ. أمي في فستان زفافها. وصورة له هو أيضًا، وهو يلعب كرة القدم مثلاً، على التراب بقدمين حافيتين، والبحر يحيط بنا. كل ما قد يجبرني على حبه، وكل ما جعلني أحبه حتى بعد أن طردني.

ليتني أستطيع أن أشرح لكِ يا صوفي. أريد أن أجد وسيلة كي أجعلكِ تفهمينني دون كلام، كما كنا نفهم بعضنا في صغرنا. أعرف أنكِ ستحاولين لأنكِ تحبينني، لكن الحب أحيانًا لا يكفي.

أتعرفين؟ لدي شعور بأننا سنكون يومًا ما كلنا هنا... معًا. القبيلتان... قومه وقومها. ألن تكون تلك نهاية سعيدة؟ نستطيع أن نسير معًا على هذا الممشى الصغير هنا حتى نصل إلى البحر. أستطيع أن أسمع البحر من فوق التلة رغم أنني لا أراه. إنه يحدّثني. أقسم أنه يهمس في أذني بألف صوتٍ. إنه يعرف حقيقة ما جرى هنا، لو أن أحدًا يصغي إليه فقط... لكن لا أحد يسمعه. كلنا نتخبط في هذه الدنيا كالعميان. وكلنا ننظر إلى بعضنا دون أن نفهم دواخل الآخر كأننا غرباء، حتى وإن عشنا في البيت نفسه.

تذكري أنني أحبكِ.

مارك، يافا

ديسمبر 1988

أنهى رسالته وهو يعرف أن ثمة الكثير لم يقله. لكن الزمن يجري.. واللحظات تتدفق جارفةً، فتمنحه إحساسًا لذيذًا بالغرق. إنه مع الطوفان الآن، والطوفان يحمله حيث مقصده، بلمعان ماء البحر، ودفء الحجارة البيضاء تحت يده وهو يتسلق الجدار العالي، وارتعاشة أوراق الشجر والظلال، وهي تساعده على النزول في الحديقة الصامتة.

لامست قدماه الأرض أخيرًا. ورآها... هناك، محفورةً في جذع الشجرة، أحرفًا متعرّجة نقشتها يد طفل في اللحاء. لمست أصابعه الخطوط الباهتة. سالم. لم تكن دائرة الميم تامة، وقد ابتلعها الخشب المنتفخ. احتار لحظات بدائرة تلك الميم المنسية. رأى في داخلها وجهًا. ورأى بداخل الوجه عينين تسألانه سؤالاً لا يملك له إجابة. وضع إحدى يديه عليها يغطيها، وباليد الأخرى أخرج سكينًا وحفر اسمه تحتها.

كان زجاج باب المطبخ كالماء الذي انفلق لأجله. كسره بيده ولم يشعر بشيء. عندها رأى حجرات البيت تنفتح له وتستقبله. سمعهم يتجمعون وراء البوابات بعد أن عاد إلى المطبخ يحمل حقيبته الخالية، أصواتهم عالية مزعجة كأزيز النحل. حان الوقت. شعر بالخوف يتسلل إليه، لكنه ذكّر نفسه بأن مهمته تمّت، وأنه مستعد. وقد وقفت بينه وبين تلك الأصوات الأشجارُ الهامسة، وثقلُ التراب، والأغصانُ المتشابكة التي تحرس المكان.

تناهت له أصواتهم وهو يغمض عينيه. أغنية تشدو بها أصوات بعيدة، تنساب إلى أذنيه عبر الأغصان الكبيرة كفقاعات قادمة من الماضي، حرّرتها الريح نفسها التي تحرّك الأوراق، وتنقل شذا البرتقال إلى داخل المنزل.

كان ضحكًا ما سمعه يسري خلال الشجر، أو كان شيئًا يشبه الضحك. أصوات أولاد يلعبون ويقهقهون. ومن وراءه خلف الأبواب المقفلة، صوت امرأة كأنها تغني.

تملّكته الرغبة في لحظة واحدة، الرغبة في أن يرد على تلك الأصوات، أن يقف ويشرع الباب، ويريهم أنه موجود. لكن، في تلك اللحظة، أتت كتلة النار تزمجر غاضبة. دخلت عبر الباب وانقضّت عليه، واقتحمت قلب البيت. غمرته سلامًا بعبورها، وهي تزيح كل شيء في طريقها كالمد الجارف.

الجزء الأول

أسفار

"الغائب" هو كل مواطن فلسطيني هجر مكان سكنه قبل 1 سبتمبر 1948 إلى مكان [في فلسطين] كانت تسيطر عليه في ذلك الوقت القوات التي قاومت إنشاء دولة إسرائيل... وكل الأملاك التي كانت لغائب تنقل ملكيتها تلقائيًا إلى المجلس القيّم على أملاك الغائبين.

قانون أملاك الغائبين الإسرائيلي لعام 1950م

لا شك أن اليهود قوم بغضاء، وأنا شخصيًا لا أحبهم، لكن هذا ليس سببًا مسوّغًا للمذبحة المدبّرة.

رئيس الوزراء البريطاني نيبل تشامبرلين

في خطاب خاص كتبه عام 1938م

1948

"يلا يا سالم الفلاح.. اليهود بدهم يجوا يكسّروا راسك.. بدهم يطردوك ويكسروا لك ضهرك زي الحمار".

كان الولدان يواجهان بعضهما في الطريق الترابي بين بساتين برتقال يافا والبحر. وكان أحدهما أكبر سنًا من الآخر، ذا جسم ممتلئ وشعر أسود. اكتنزت ذقنه وذراعيه وبطنه بطبقات شحم كأنه خروف جاهز للتحمير في الفرن. وفي يوم ما، ستستوي هذه الطبقات فتصبح كرشة محترمة من كروش الأعيان شاربي القهوة، ذوي العزب البيضاء والزوجات المكلفات. لكن اليوم، كانت هذه الشحوم لا تفيد إلا في التنمرد على من هم أصغر منه، وجمع العرق في ذلك الجو الربيعي الدافئ.

أما الصبي الصغير فكان يقف ووجهه صوب مياه البحر التي بدأ لونها يسّود مع الغروب، ممسكًا كرةً في يده. كان يرتدي حذاءً مدرسيًا أسود ذا أربطة، وبنطلونًا بنيًا قصيرًا. وكان قميصه الأبيض محشورًا بحرص حول خصره داخل بنطلونه، ومزررًا إلى ذقنه. وجهه الصغير شاحب ككتاب مفتوح، حتى إن الآباء في المدرسة المسيحية كانوا يحبون أن يغيظوه، فيقولون إن وجهه صفحة يمكن أن يكتب أي شخص عليها.

"ما تقولي يا فلاح"، قالها بحذر، وهو يقلّب الكرة بين يديه. لم يكن من المستحسن أبدًا أن تناقش مازن ويده الثقيلة القاسية رغم أعوامه العشرة.

ليش لا؟ ما أنت عايش في بيّارة. وأبوك بيخليك تلقّط البردئان.. زي

الفلاحين. تعلّق رد غاضب على شفتيّ سالم، لكنه ابتلعه بعد أن باغته التردد. ألم يرجُ أباه أن يذهب إلى بستان البرتقال الأسبوع الماضي؟ كان القطاف قد شارف على الانتهاء، وقد قطف عمّال والده مزرعة الأسرة التي تقدّر بخمسة عشر دونمًا من أطيب أشجار البرتقال. كان من المفترض أن يكون انضمامه إلى القاطفين هديته في عيد ميلاده. فقد بلغ السابعة الآن، وسوف يشارك أخويه حسّان ورافان ملكية المزرعة. خليني أروح معكم.. طلب من أبيه، لكن أباه رفض، وما يسوء سالمًا أنه بكى يومها بكاءً مريرًا.

قال محاولاً تغيير الموضوع: أبوي بيدفع للفلاحين ليشتغلوا بس أبوك بيزتّهم بالسجن. كان والد مازن من أبرز قضاة يافا. قال عنه حسان إن المال يتدفق من بين يديه تدفقًا. حتى لو إجو اليهود وعاشوا في داركم، أبوك ح يساعدهم لَيحبسونا كلنا. ابتسم مازن بخبث، وأجاب: ولا يهمك.. اترجاني وممكن آويك أنت وإمك الحلوة.. إلا حسان الحيوان.. يدوّر له مكان يلمّه.

اختطف مازن الكرة من بين يديّ سالم، ثم ركض نحو البحر. تبعه الفتى الصغير فورًا ويداه الخاويتان تتدليان على جانبيه فيما كانت الشمس تنغمس في البحر في رحلة غروبها. "اليهود ما راح يدخلوا والإنجليز لساتهم هون". قالها سالم متذكرًا ما قاله له الأب فيليب في مدرسة القديس يوسف صباح اليوم، بعد أن نشب شجار بين ولدين في الساحة وقت الراحة، فقد نعت أحدهما أبَ الآخر بالخائن لأنه باع أراضيه لليهود. فصرخ المشتوم بأن أباه ليس جبانًا لأنه لم يفر من منزله كما فعل أبو الشاتم.

جُرّ الاثنان من أذنيهما، وهما ما يزالان يتبادلان الضربات. كان سالم يقف مذهولاً مما جرى، بينما كان مازن يصفق لهما ويضحك. عندها ربت الأب فيليب بلطف على وجهه، وقال بصوت يعلو على صوت فلكات العصا التي تلقاها الولدان عقابًا لهما: "كل هالحكي عن اليهود والجيوش... مش كل

الناس مؤيدة للحرب، ولساتهم الإنجليز عنّا، والرب بيحرس عباده".

قال أحد الآباء بعبوس، وكان على مسمع منهما: "ربنا بيعين اللي بيعين حاله". فأجابه آخر: "لازم ربنا يعينا لأنه الإنجليز مش حيرفّ إلهم رمش".

أعاده مازن إلى الحاضر بضحكة ساخرة: "آه والله إنك حمار يا سالم. شو بيهمهم الإنجليز إذا عشنا أو متنا؟ كل اللي بدهم إياه إنهم يقسّموا البلد زي البردئانة، ويعطوا اليهود القطعة الكبيرة. بس والله لنكون جاهزين إلهم. خليهم يشوفوا شو حتسوّي النجادة فيهم. متى بس ارفع البارودة بوجه اليهودي؟"

لم يتخيل سالم أن بإمكانه أن يرمي أي شخص بالرصاص. رأى مرة شرطيًا بريطانيًا يطلق النار على كلب شارد مريض. لما سمع سالم صوت الرصاصة وهي تخترق جسم الكلب، جثا على الأرض وتقيأ. ولم ينسَ بعد ما حدث الشهر الماضي... الدم الذي سال فوق الطوب حتى بلغ قدميه... لكنه لا يريد أن يتذكر ما وقع.

قال وهو يدس يديه في جيبيه ويشدّ ظهره باستقامة: "ما بتقدر تنضم للنجادة. إنت بعدك زغير. ماما بتقول هم ما بيقبلوا إلا الرجال".

فتيان كشافة مسلحون، هكذا شبّهتهم أمه عندما رأوهم في الاستعراض العسكري الأسبوع الماضي، وسالم يقف على أطراف أصابعه خلف ظهر حسّان، يحاول أن يراهم وهم يقفون الوقفة العسكرية في ساحة برج الساعة. كان الجنود يحملون بنادق طويلة ويرتدون زيًا رماديًا. وقد عرف أحدهم لأنه من شلّة مازن، وكانوا يسمون ذلك الفتى مؤخرة القطة، لأن له بثرة بنية كبيرة في منتصف ذقنه. واعتاد الأولاد على إغاظته والسخرية منه حتى تدمع عيناه. لكن عينيه في ذلك اليوم كانتا متألقتين فخورتين. حتى حسّان كان يود

الانضمام إلى صفوف النجادة، لكن محمد نمر الهواري لم يكن يقبل أي شاب يقل عمره عن الخامسة عشرة.

قال مازن: "أمك بتفكر زي النسوان، مخها مخ مَرة. الهواري صاحب أبوي. وحتى لو انضميت ليش بدي أحكي لك؟ هم أصلا ما بيقبلوا الحمير الزغيرة اللي زيك".

"أنا مش حمار". همس سالم بينما مازن يجري أمامه. كان سالم يتصور أحيانًا، في أشجع لحظات خياله، أن يطرح مازن على الأرض ككرة قدم منفوخة. لكنه كان يخاف مازن وقبضتيه الكبيرتين وإهاناته القاسية أكثر حتى مما كان يخشى اليهود. أتمنى أن يأخذ اليهود مازن معهم عندما يأتون.

سوف يأتي اليهود. هذا ما تهامس به الآباء فيما بينهم في المدرسة المسيحية. وقد بدأ الريف يخلو من الناس مع اقتراب القتال إليه، وقد دُفع اللاجئون إلى يافا غصبًا، بحقائبهم المتعفرة وأطفالهم المذعورين. اشتكى والد سالم إلى رئيس البلدية وجودهم، لكن أمه كانت ترسل حزمًا من الطعام إلى الأمهات وأطفالهن الرضع. لم يفهم سالم كيف يختار الناس النوم في مساجد يافا وكنائسها بدلاً من بيوتهم.

لكن اليوم، والشمس متربعة في عليائها، والهواء محمّل بالملح وشذا البرتقال، لم يكن من السهل أن يجد الخوف له مكانًا في نفسه. ظلا يطاردان بعضهما على الطريق، ويتسابقان عبر الخمائل، ويصيحان فيحمل هواء البحر الدافئ صيحاتهما. طارت الكرة تجاه البحر، فاندفع سالم كالبرق، لاهثًا جذلاً، والتقطها قبل أن يسرقها الموج. التفت وراءه ينظر إلى مازن كي يعلن انتصاره، لكن أدرك فجأة أنه كان يقف وحيدًا. احمرّت وجنتاه عندما رأى أن مازن يبتسم بخبث من أعلى الحاجز. قهقه مازن وقال: "إنت دايما بينضحك عليك".

أخفض سالم رأسه ليخفي حمرة خجله. سمع الحصى على الأرض يسأله: لماذا تدعه يخدعك دائمًا يا غبي؟

قال مازن وهو يشير إلى ركبتيّ مازن القذرتين ووجهه المتعرق: "يلا يا فلاح. أنا جوعان. يلا نروح ع السوق".

***

كان هناك طريقان من العجمي إلى أسواق ساحة برج الساعة في يافا.

كان الطريق الأول من بيت سالم يشق مساحات برية صامتة. وكان يمر عبر الفيلات الساحلية التي صقلت بياضها أشعة الشمس، وحدائقها المسيّجة التي تسكب جداول عذبة من أزهار الجهنمية الحمراء، ويعبق جوّها برائحة البرتقال الذي لم يُفطم عن ترابه. يميل الطريق يسارًا نحو شارع العجمي، حيث تسير السيارات متجاوزة حميرًا تجر أحمالها من الرمان والليمون. باب مخبز أبي العافية كان مفتوحًا دومًا، حتى في أشهر الشتاء الباردة. انتظر سالم أمامه مئات المرات، وحواسه مستعرة بروائح الفطائر المحمولة في سحب من القرفة والفلفل الحلو. كانت أمه تحب المنقوشة المرشوشة بالزعتر والسمسم. وكان يأكلها من يديها قطعة قطعة وهما يسيران في البلدة القديمة، بمقاهيها ودخان الأركيلة الأصفر.

أما الطريق الآخر فهو طريق فتيان يافا، وكان عبور هذا الطريق بالنسبة لهم طقسًا روحانيًا يخطو به الولد عتبة الشباب. فما أن يتعلم الصبي منهم خطواته الأولى حتى يتحداه آخر أن يجرب السير على هذا الطريق الذي يشقّ الشواطئ الوعرة. فيجازفون بسلامتهم فوق الصخور الزلقة، ثم يتقدمون شبرًا شبرًا، بأرجل مترددة أسفل جدار المرفأ العتيق.

كانت شمس ذلك اليوم تسدد أشعتها على هلال ساحل الأبيض المتوسط، والمياه تلتمع ذهبيةً على الشواطئ المظلمة كأنها قرط دائري في أذن أفريقية. تقافز سالم ومازن في بركٍ شكلها الموج، فتطاير الماء من بين أقدامهم ليصيب أولادًا قد شمّروا عن سواعدهم يصطادون السلطعون. سارا بحذر فوق الصخور المدبّبة حتى بزغ ميناء يافا بحجارته البيضاء المغسولة بماء البحر.

علّمهم الأب فيليب: "مينا يافا موجود من لمّا انخلق هالبحر. هالمينا موجود قبل العرب وقبل اليهود. ربنا دلّ يافث ابن نوح لهون من زمان كتير، ومرّ عليه بشر كتير. ومدفون في هالأرض عضام اتنين وعشرين جيش. كان الوثنيين في طيبة بيقدموا العذارى قرابين هناك". وأشار بيده المتغضنة فتبعت أعين الطلاب الإشارة. "هناك ع هديك الصخرة اللي بنسميها (أندروميدا) بيستنوا وحش البحر إنه يبلعهم. وبهاي المينا كان الملك الصليبي ريتشارد قلب الأسد مريض وبيترجى صلاح الدين لينهي الحرب. وجنب الفنار خيّم الإمبراطور الملحد نابليون، والطاعون منتشر بين جنوده، وأسراه المؤمنين بيثوروا عليه، بوقتها تعلّم درس راح اعلمكم إياه mes enfants: يافا هيّ أحب الأماكن لربنا، وملعون اللي بده يخربها".

كان سالم يحمل في صدره إعجابًا سريًا مشوبًا بالإحساس بالذنب نحو الملك الإنجليزي الذي يحتل الأسد صدره، رغم أن معظم الأولاد كانوا يحبون نابليون والناصر صلاح الدين. تراءت له صورة ريتشارد الآن وهو يتقدم بحذر تحت جدار المرفأ الأصفر. قد يكون الملك قد خطا حيث يمشي الآن، وقد ضربته المياه الضحلة بلطف، واشمأز من رائحة قوارب الصيد العائدة برزقها. لا شيء في هذا البحر يدل على مرور القرون غير السفن البخارية في خط الأفق.

بينما سالم يتسلّق الصخور رافعًا جسده ليستقر على أرض المرفأ كان مازن

قد وجد برتقالة مطروحة. رمى لبها على الأرض وأخذ عصيرها الأصفر يتقاطر أسفل ذقنه. "هيّها هناك. هيهم هناك". قالها وإصبعه السمين يشير إلى شمال الميناء، حيث ترتفع بنايات تل أبيب اللامعة مطوّقة الساحل على مدّ البصر.

اعتاد سالم رؤية تل أبيب حتى إن وجودها لم يعد يجذب اهتمامه. كان كبار السن فقط، أجداد أصحابه وجدّاتهم، يحكون أحيانًا عن زمن لم تكن فيه يافا محاطة إلا بالكثبان، أما تل أبيب فكانت مجرد أصداف يحركها الهواء بين انعطافات الرمال. لكن بالنسبة لسالم، فالمدينة موجودة منذ عرف الدنيا، كما أن البريطانيين موجودون منذ فتح عينيه وليدًا. أولئك المندوبون والقادة.. رجال باردون، حمر الوجوه. كان الأولاد يشخرون بأنوفهم كالخنازير إن تحدثوا عنهم، لكنهم مع ذلك يحبون حامية يافا. وكان أحد جنودها، واسمه جونو، يعطي مازنًا وحسّانًا سجائر. وقد وعد أن يعطي سالمًا لفافة عندما يبلغ الثامنة.

غير أن سالمًا أحس في تلك الأيام أن تل أبيب تتوسع، وأن الوجود الإنجليزي ينكمش. يقول الآباء: "حكم الإنجليز في أمنا فلسطين بيخلص الشهر الجاي. وحيطلع من رحمها كائن جديد اسمه إسرائيل وحيقسمها لنصين للأبد". سمع سالم أبا مازن يلخّص الوضع بقوله: "ما حتحس إلا والإنجليز لامّين عفشهم وبيحكوا لنا مع السلامة".

عقد مازن حاجبيه وهو يسمع أذان المغرب يرتفع في السماء. قال: "تأخرنا. لو ما كنت بطيء كان وصلنا بدري". قال سالم فجأة: "بلاش نروح هناك". عاد إليه الخوف الذي كان يزحف إلى قلبه وهو يتسلق جدار الميناء، فانقض عليه كموجة غاضبة الآن. بدت قدماه في ضوء المساء حمراء. حمراء كالدم المتناثر على الطوب، وكأصوات الصراخ. لكن مازنًا ضحك وقال: "يا

خيخة يا زغير". مسح فمه، وجذب سالمًا من ذراعه نحو أزقة يافا الضيقة، وكلمات المؤذنين تحوم في سماء المدينة، عالية، متنافرة، متلاحقة من كل حي.

اندفعا داخلين ساحة برج الساعة مع خفوت ترانيم الأذان. تقطّعت أنفاس سالم وأوجعته ذراعه. أفلته مازن ووقف هو أيضًا يستريح ويلتقط أنفاسه، ويهدئ دقات قلبه المتسارعة. جرت عيناه تلقائيًا على زوايا البرج الحادة. نُصبت فوقه لوحة تحمل اسم السلطان عبد الحميد الثاني. تعرّفوا في المدرسة على هذه الشخصية. هو الحاكم العثماني العظيم الذي طلب من سادة يافا أن يدفعوا ثمن بناء البرج بأنفسهم، إما لشحّ ماله أو لقلة صبره. ولا تجد اليوم رجلاً ثريًا في يافا، مسلمًا كان أو مسيحيًا أو يهوديًا، إلا ويدعي أنه موّل البناء بحُرّ ماله.

لكن ذاك كان في الماضي. في نهاية الساحة تكوّمت أنقاض السراي الكبير مركز الحكومة مثل ورم بشع خبيث، وقد خرق التفجير المبنى فكان فجوة في الساحة كأنه فم خالٍ من الأسنان. زحف سالم مقتربًا من الحجارة المكوّمة، ومازن يراقب رجلاً ملثمًا بكوفية يسحب حجارة من الركام.

أشار مازن إلى بقع حمراء داكنة، وقال: "براهنك إنه لساته فيه ميتين تحت. وإلا يمكن ايدين أو رجلين. لو إنهم انتخبوا أبوي لرئاسة البلدية بدل الغبي هيكل كان لقيت المكان هدا كله نضيف. شامم هالريحة؟ إف.. أو يمكن ما شميتها لأنه حسان ريحته هيك على طول".

عاد الشعور بالغثيان سالمًا. قالوا إن القنبلة كانت مخبأة في عربة برتقال، وإن الرجل الذي كان يسوقها يبدو عربيًا لكنه في الحقيقة من الإرغون، أكثر اليهود إرهابًا.

سمع هو وحسان صوت الانفجار في ذاك اليوم وهما في طريقهما إلى

المدرسة، ثم سمعا الصراخ. دار حسّان على عقبيه وهرب، وحقيبته تتمايل من بين كتفيه. هرب سالم أيضًا، خائفًا من أن يبقى وحيدًا. أمسك بطرف حقيبة حسان حتى اختفت من أمام عينيه في سحابة صفراء معتمة. ابتلعته السحابة وخنقته بترابها، وقطع الزجاج وكِسَر الحجارة تمزّق باطن قدميه. تعثر بها فافترش الأرض. سمع صافرات الإنذار والطنين يصمّ أذنيه. وشخص كان يصيح: "عمر... عمر". كان غارقًا في بئر مظلمة. حاول أن ينادي حسانًا لكن التراب ملأ فمه. شيء ما كبير طري يرقد بجانب ساقيه، ويتسرب منه سائل بدفقات رتيبة أغرقت قماش حذاءه باللون الأحمر تحت الشمس المتوارية في غروبها. ازداد اللون وضوحًا وهو مستلقٍ لا يستطيع الحركة. حتى ظهر حسان فجأة فوقه، والغبار الرمادي يصبغ وجهه، وعيناه مفجوعتان كعينيّ حصان جافل. شدّ حسان سالمًا بقوة من قميصه المتسخ، وسحبه إلى المنزل.

انتحبت الأمهات في يافا في اليوم التالي، والجنود البريطانيون يدبّون بين الأنقاض يمشّطونها. راقب سالم متسمرًا في ذلك اليوم مازنًا وهو يسحب خرقة قميص إحدى الجثث من تحت طوبة. كان القماش أبيض، ملطخًا ببقعة سوداء امتزج بها الدم والتراب. كانت رائحتها مقززة، وقد ظلّت ملتصقة في منخاريه حتى بعد أن طاردتهما الشرطة وفرّا.

جذب سالم قميص مازن. "الله يخليك.. خلينا نروّح. ما بحب ضل هون". أبعد مازن يد سالم عنه، لكنه استدار على أية حال. عندما رأوا الجثث محمولة في ذلك اليوم قال له مازن: "ح يصيروا عفاريت.. ما بيرتاحوا الميتين في قبورهم لحتى ياخدوا بتارهم".

وصلا إلى سوق العطارين ليشتريا حلوى. استقبلتهما هضاب من الفستق والليمون والورد والذهب، ورحبت بهما روائحها الزاكية، لكن فم سالم كان

جافًا. اعتاد الولدان على أن يشقّا طريقهما بصعوبة بين جموع الناس ليحصلا على ما يريدانه. لكن اليوم مختلف، والسوق شبه خالٍ. تطلّع إليهما البائع بعينين نهمتين، وهما يناولانه مصروفهما.

"هييه.. سالم".

استدار سالم في وجل، فلم يكن مسموحًا لهما بأن يكونا في الخارج وموعد العودة إلى البيت قد دنى. قال مازن بصوتٍ عالٍ: "الله ياخده. هدا ابن اليهود".

قال سالم: "مرحبا إيليا. كيف حالك؟". نظر حوله مسرورًا بأن الساحة كانت خالية. ليس من المستحسن أن يراه الناس مع يهودي، حتى وإن كان من أهل المدينة.

كان إيليا أكبر من مازن، فاتح البشرة مثل سالم، ذا ذراعين نحيلتين. "يعني..." هز كتفيه بهذه الكلمة التي تضع حاله في المنطقة الرمادية بين العافية ونقيضها. "كنت رايح أشوف أبوي.." وأشار إلى سوق البلابسة (سوق الملابس). "صرنا نسكّر الدكان بدري هاي الأيام. ما بيحب إني أمشي لحالي والدنيا مولّعة والبلد كلها مشاكل".

قال مازن: "ومين سبب هالمشاكل؟ أبوك وصحابه".

اعترض سالم: "هم مش من هذول الناس يا مازن". تذكر أنه في يومٍ ما كان مسموحًا لهما بأن يكونا صديقين. فوالد إيليا إسحاق يَشوف يكاد يكون عربيًا، ولا يمكنك أن تفرق بينه وبين أي فلسطيني، فبشرته العراقية ملوحة بالشمس، وعيناه عينا صقر تلتمعان فوق فحم الأركيلة، والفقاعات تتراقص في جوفها وهو يدخن طوال يومه. لكن أم إيليا جاءت من خارج فلسطين مع اليهود البيض.

سبّبت صداقتهما جدالاً حاميًا مستمرًا في منزل سالم أفضى إلى وضع حد لها. صرخ أبوه في وجهه ذات مساء وهو يضرب الطاولة بقبضته: "اليهودي مش فلسطيني، واليهودي مش عربي. كلهم ولاد كلب إجو هون حتى يسرقونا. بدك تفضحني؟". ردت أمه ببرود، وجبينها منبسط كسطح زجاجة: "بالله شو؟ روّق إنت بس روّق.. كانت عيلة إسحاق بتركب زرار بسوق البلابسة من قبل ما تخلق إنت حتى. وإذا بخصوص مرته الأجنبية، طيب وأنا؟ ما جرجرتني لهالبلاد الملعونة متل البقرة اللي بتجر عربية؟ هاه؟"

كان سالم يعلم أن صداقة غريبة تربط بين أمه ولِي لي يَشوف البيضاء. عندما يرافق أمه لتستلم ملابسها الفاخرة من دكان إسحاق، كانت لي لي تتحدث معها بعربية بطيئة ولكنة ثقيلة. فكانت أمه تبتسم لها ابتسامة قلما تتكرم بها على أحد، حتى زوجات بقية الأعيان.

بدا إيليا أكثر تعاسة اليوم من أي يوم آخر. كانت أسرته من القلائل المعدودين الذين لم يرضوا أن يبرحوا يافا، بينما رحل بقية اليهود إلى تل أبيب. صار دكانهم في سوق الأقمشة مكانًا مستهدفًا، ومع هذا فقد أبى إسحاق أن ينتقل. "راح ضل هون مهما صار". وظل يأتي بعناد إلى العمل كل يوم رغم تناقص عدد زبائنه القليلين.

ردّ إيليا على مازن: "عيلتي بدهاش أي مشاكل. كل اللي بدنا إياه إنّا نشتغل. مش بس الإرغون هم اللي بيعملوا المشاكل". قالها وهو يومأ برأسه ناحية الجنوب، صوب مقر النجادة وجيش الإنقاذ العربي.

رأى سالم على وجه مازن نظرة يعرفها جيدًا، النظرة التي تسبق الضرب المبرح. قال بسرعة: "اسمع إيليا. تعال آخذك عند أبوك هلاّ. لازم نرجع قبل ما تعتّم الدنيا".

قال مازن والبغض يتقاطر من كلماته: "طيب يا ولاد اليهود. تمشوا ع راحتكم. خليني اشوفكم لما تدخل الجيوش العربية". اقترب من إيليا، وهمس في أذنه: "احنا ألوف يا يهودي.. وحتشوف". ثم استدار وركض عبر الساحة.

قال إيليا: "ما فيه داعي إنك تمشي معي يا سالم". بدأت الظلمة تكتسح السماء الآن، والمساء يجر السحب الرمادية خلفه.

"مش راح أمشي معك للآخر. بس شوية. إمك بخير؟"

"آه بخير. المسكينة مرعوبة هلاّ. وهي وأبوي بيتخانقوا كتير".

ركل سالم الحجارة بقدميه. "وأهلي برضه. إمك خايفة أحسن يجو الجيوش العربية ويدافعوا عنّا؟" لم يكن الحديث في الإذاعة ومنابر الجمعة عن شيء إلا هذا.

لم يجب إيليا، وسارا في صمت. شعر سالم بالأسى عليه. لو أنه في مكان إيليا، ألن يخشَ الجيوش العربية العظيمة؟ كان يتخيلهم: صفوفًا وجحافل من الرجال، براياتهم المرفرفة وبنادقهم المصوّبة، مثل البدو في الحكايات الشعبية. قال بتعاطف: "بتقدر تجي ع بيتنا. ماما بتخبيك. مش راح نقول لحدا إنك يهودي. راح تكون بأمان عنّا".

رفع إيليا رأسه بحدة. فزع سالم من تعبير وجهه. قال إيليا ببطء: "يا سالم.. ما بظن إنّا نقدر نعيش زي الأول. ماما بتقول إنكم العرب بتكرهوا اليهود وما بدكم يكون فيه سلام بيناتنا. يعني آخرتها بيكون فيه حرب أكيد. والله وحده اللي بيعلم من اللي حينتصر".

أجاب سالم بحزم: "العرب بدهم ينتصروا". لم يكن يحمل في قلبه حبًا كبيرًا لأبيه أو لأبي مازن، أو لغيرهما من الرجال البدناء الذين يرتادون بيتهم.

لكن عالمه قائم على رائحة سجائرهم وهمهمة حديثهم. ومن المستحيل أن يصدق أن تُسحب منهم سلطتهم التي تسيّر الكون بهدوء.

توقف إيليا بغتة. قال: "إذا كنت بتفكر هيك فإنت زي مازن. ليش ما روّحت معه؟ وراح يعلمك كيف تصوب ع أهلي وتكسّر دكانتنا زي صحابه الفتوة".

أفلتت ضحكة من سالم قبل أن يستطيع حبسها، فشكل مازن السمين وهو يصرخ ملوّحًا بمسدس بيده مضحك جدًا. لكن يبدو أن الضحك جرح مشاعر إيليا. انكمش كتفاه نحو جسده كعفريت العلبة قبل أن ينفلت من النابض صائحًا: "يالله! روح معه! روح!". ضرب صدر سالم بقبضته، ودفعه فارتطم بالجدار الحجري.

كان الألم مثل ذلك الذي شعر به سالم عندما قرصته نحلة ذات مرة: خدر يتبعه ألم حاد متزايد دفعه إلى البكاء، دموع ساخنة تجمّعت في عينيه. انقبضت يداه وصرخ: "إنت روح! اطلع من هون.. هاي فلسطين بلد العرب. روح ع بلدكم".

كتمت الدموع الكلمات في حنجرة إيليا. "يافا هي بلدي! بس هدا الحيوان مازن بده يرمي قنبلة ع بيتنا. شو بدنا نعمل؟"

تذكر سالم رعب ساحة برج الساعة، وركام الحجارة المتكسرة، والصرخات والعويل الذي ملأ السماء مثل الدخان. تحدث هيكل رئيس البلدية عبر الإذاعة في تلك الليلة، ونعت اليهود بالمتوحشين قتلة الأطفال. أقسم مازن ورفاقه على الانتقام. ومنذ ذلك اليوم كان من الكفر أن يظن أحد أن اليهود ليسوا من شياطين الأرض.

رغم كل هذا، ما زال سالم يؤمن أن عالم اليهود منقسم إلى خير وشر.

الأشرار يعيشون في تل أبيب وفي تلك المزارع الشاسعة التي لا يُسمح للعرب بوطئها. قال الناس إن أولئك اليهود طردوا عائلات من بيوتهم، واقتحموا حيفا والقدس وقرى عربية أخرى وقتلوا بالمئات، على مسمع ومرأى من البريطانيين. لم يرَ سالم أيًا من هؤلاء اليهود المرعبين في حياته. لكن عندما يحلّ الليل، يراهم واقفين ووجوههم مطموسة، يلفّعهم الظلام في أطراف منامه.

لكن أسرة إيليا تبدو مثل أي أسرة أخرى في يافا. وتعيش وتعمل كما تعيش أسرته وتعمل. فكيف يكونون أعداءً؟

أراد أن يشرح هذا لإيليا، لكن الارتباك عقد لسانه. فوقف مصوبًا نظره إلى الأسفل، يفرك قدمه في التراب. كانا على بعد مسافة لا بأس بها من بوابات البلابسة، ووقت الإغلاق قد حان. تنهد إيليا كأنه يسأل: وماذا الآن؟ لكن إن كانت هذه دعوة منه إلى سالم ليتحدث، فإنه لم يفهمها.

قال سالم أخيرًا: "لازم أروح ع البيت هلاّ". غدًا. قد يصلحا الأمور بينهما غدًا. أومأ إيليا برأسه وقال: "طيب يا سالم. مع السلامة".

ابتعد إيليا، وشعر سالم بثقل في صدره، كأن به حجارة صغيرة نحتها القلق تقرقع في جوفه. لم يبقَ ما يفعله إلا أن يجري عبر أنقاض الساحة، وعبر المحال المقفلة إلى الأمان في بيته.

***

كان بيت الإسماعيلي يُعرف ببيت الشموطي (نسبةً إلى اسم البرتقال). صف كثيف من أشجار برتقال الشموطي ترفرف أوراقها خلف أسوار البوابة الحديدية، وأزهار الربيع مكتنزة على أغصانها الكبيرة. وعندما يحين الربيع، تتحول براعم الليمون الصغيرة إلى كرات يافا الذهبية. وعندما تُعصر